

في نور محمد فاطمة الزهراء

فطابت نفسها بعبارة التي فاض كل حرف من حروفها بالحنان، وجفّت الدموع، وأشرق في محيطها الوضيء الابتسام. ومع ذلك، فقد كانت دائماً على ثقة لا تتزعزع أن ربّه لابدّ دافع عنه شرّاً ما يبيتون (يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ الْبَيْتِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ) [401]. فإذا كانت شؤونها قد انفرطت من عينيها دون إرادة انفراط، فليس مسيلها نشيج فزع بقدر ما هو تنظيم حبّ كبير. أمّا محمد فقد انطلق إلى المسجد على طمأنينة ويقين، حتّى إذا قارب عقارب الدسيّة [402] أخذ حفنةً من تراب ورمى بها نحوهم، وهو يقول: «شاهت الوجوه». فكأنّهم ألقى بهم في جبّ بلا قرار، كأنّهم حبسهم بكلماته هذه وراء أسوار شاهقة ضخمة من الصمّ والخرس وعمى العيون دونها سدّ يأجوج ومأجوج! وانطلق من بينهم إلى موضع قريب، وقف فيه خاشعاً يصلّي، وهم لا يرونه ولا يدركون أنّهم على ملمس أنملة [403] لا على قيد ذراع. لقد تعطلّت فيهم كلّ أعصاب الإحساس. * * * فلماذا إذاً كان بكاء الزهراء؟ أمن جزع ولوعة؟ أمّ من همّ وقلق؟ أمّ من خوف وقلق؟ أمّ من توقّع نزول شرٍّ مجهول؟ كلمة بذاتها من هذه لا تقدّم الجواب، لا تحيط وحدها بمعاني النحيب، لا تنضح - مفردةً - بكلّ الأسباب. فكما يقطر ماء الأعين حين الحزن يقطر أيضاً حين الابتهاج، قد يهتن عند الألم